ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الأوضاع السياسية والفكرية في تلمسان خلال العهد الزياني ما بين القرنين (٧ – ٩ هـ/ ١٣ – ١٥م)

هادي جلول

أستاذ التاريخ الوسيط

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

إن الجوانب المختلفة للحياة البشرية شديدة الترابط، ويؤثر كل منها في غيره ويتأثر به، ومن هنا كان لزامًا على من يدرس جوانب النشاط الإنساني في بيئته ما، أن يمهد بالحديث عن بقية الجوانب، وذلك مدخل ضروري حتى يصل الباحث إلى نتائج علمية موثقة مبنية على دراسة متكاملة، ومن هذا المنطلق جاء هذا التمهيد عن الحالة السياسية والفكرية، ليتسنى لي فهم النشاطات والمجّهودات الفذة التي قام بها الفقهاء، والعلماء التلمسانيون في الدفاع عن عقيدة السلف الصالح في جميع المجالات. إذ أمعنا النظر في الحروب السياسية، والوقائع المتسلسلة، والانهزامات المتتالية لدولة بني عبد الواد الزيانية، وجدنا انه لم ينل أهلها فتورًا، ولم يتخلل صفوف أبناءها فشل في توطيد عزمهم على تأسيس دولتهم ولم شتات قبائل المغرب الأوسط، وتكوين قوة سياسية تمكنهم من استرجاع المجد الزياني، وأن تصبح فيما بعد مركز إشعاع حضاري يضرب بها المثل، فكان لزامًا علينا أن نتساءل كيف كانت الأوضاع التي عاشها السياسي والمفكر في جو مشحون بالحروب؟ وهل أثر ذلك في الحركة العلمية في أوساط المجتمع التلمساني في العصر الوسيط؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها حاولت أن أقدم صورة مبسطة حول الأوضاع السياسية والفكرية آنذاك داخل المجتمع الزياني.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ نوفمبر ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ١٩ مارس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

المغرب الأوسط، الأسرة الزيانية، الدولة المرينية، الحفصيون، علماء تلمسان

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041885

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هادي جلول. "الأوضاع السياسية والفكرية في تلمسان خلال العهد الزياني ما بين القرنين (٧ – ٩ هـ/ ١٣ – ١٥م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص ٩٠ – ٩٧.

مُقَدِّمَةٌ

إن الجوانب المختلفة للحياة البشرية شديدة الترابط، ويؤثر كل منها في غيره ويتأثر به، ومن هنا كان لِزاما على من يدرس جوانب النشاط الإنساني في بيئته ما، أن يمهد بالحديث عن بقية الجوانب، وذلك مدخل ضروري حتى يصل الباحث إلى نتائج علمية موثقة مبنية على دراسة متكاملة، ومن هذا المنطلق جاء هذا التمهيد عن الحالة السياسية والفكرية، ليتسنى لي فهم النشاطات والمجّهودات الفذة التي قام بها الفقهاء، والعلماء التلمسانيون في الدفاع عن عقيدة السلف الصالح في جميع المجالات، وأنه ليس من الممكن أن أتطرق إلى جميع الأوضاع وجزئيتها خلال فترة طويلة من الزمن مملوءة بالأحداث كما هي مفصلة ومبينة في كتب التاريخ.

لاشك أن مدينة تلمسان، كان لها تأثير سياسي وحضاري واسع النطاق خلال العهد الزياني، الذي تطورت فيه سياسيًا ونمت عمرانيًا، وانتعشت اقتصاديًا وازدهرت فكريًا، وخاصةً حينما تغلبت على فترات الضعف، والهيمنة الأجنبية التي أصابها، إذ أمعنا النظر في الحروب السياسية، والوقائع المتسلسلة، والانهزامات المتتالية لدولة بني عبد الواد الزيانية، وجدنا أنه لم ينل أهلها فتورًا، ولم يتخلل صفوف أبناءها فشل في توطيد عزمهم على تأسيس دولتهم ولم شتات قبائل المغرب الأوسط، وتكوين قوة سياسية تمكنهم من استرجاع المجد الزياني، وأن تصبح فيما بعد مركز

إشعاع حضاري يضرب بها المثل في تلك الحقبة التاريخية من الزمن، فكان لزامًا علينا أن نتساءل كيف كانت الأوضاع التي عاشها السياسي والمفكر في جو مشحون بالحروب ؟ وهل أثر ذلك في الحركة العلمية في أوساط المجتمع التلمساني في العصر الوسيط؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها حاولت أن أقدم صورة مبسطة حول الأوضاع السياسية والفكرية آنذاك داجل المجتمع الزياني.

١- الأوضاع السياسية

كان للضعف الذي أصاب الدولة الموحدية،[١] بعد معركة "العقاب" سنة (٦٠٩هـ /١٢١٢م).[٢] وسقوطها أن ظهرت على أنقاضها ثلاث دول متقاسمة مجالها الجغرافي، دولة "بني أبي حفص" في إفريقيّة سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م)، وعاصمتها تونس،[٣] ودولة "بني مرين" في المغرب الأقصى سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، وعاصمتها فاس.[٤] كان المغرب الأوسط من نصيب الدولة الزيانية،[٥] الذي تمكن مؤسسها "يغمراسن بن زيان"[٦] من إرساء معالمها وإضفاء صبغة الهيبة، والملوكية على عائلته البدوية، التي كان ماضيها متواضعًا جدًا،[٧] لما ضعف أمر الدولة الموحدية في المغرب فإن بني عبد الواد الذين كانوا يحكمون تلمسان وولايتها شقوا عصا الطاعة ونبذوا دعوتها معلنين استقلالهم بالمغرب الأوسط، متخذين من تلمسان عاصمة لمملكتهم.[٨] ولم تقنع أي دولة بالمناطق التي تأسست عليها، بل حاولت ضم بقية التركة الموحدية إما بادعاء أنها تمثل استمرارية للدولة الموحدية، كما هو الأمر بالنسبة للدولة الحفصية، أو رغبة في التسلط والزعامة، على الملك، وعرش زناتة كما هو الحال بالنسبة للدولتين المرينية والزيانية،[٩] وعلى الرغم من أن هذا الصراع لم يغير الخريطة الجيوسياسية جذريًا، ولم تتمكن أي دولة من فرض سيطرتها المطلقة والمستمرة على بقية الدول بسبب توازن القوى.

خلف هذا الصراع حالة من عدم الاستقرار السياسي، والأمني في منطقة المغرب الإسلامي برمتها وأهدر طاقات كبيرة كان من الأجدر استغلالها في مواجهة العدو النصراني الذي كان يتربص الدوائر بالمنطقة، ويقتطع مناطق الأندلس الواحدة تلو الأخرى، ويشكل خطرًا ظل يتصاعد على السواحل المغاربة،[١٠] وكان هذا حال سائر البلاد العربية التي شهدت تاريخ طويل من التمزق والتشرذم، وذلك من أجل السيطرة وفرض الوجود بكل قوة، وسوف أحاول أن استعرض أهم الأوضاع السياسية التي عاشها المجتمع الزياني، حتى استطيع إعطاء صورة واضحة، حول الصراعات التي كانت دائرة آنذاك، سواء داخل البلاط الزياني، أو مع الجارتين الغربية والشرقية، والت ساهمت ولعبت دور جد مهم في ازدهار الحركة الفكرية حتى اصبحت تلمسان مقصد طلاب العلم، والفقهاء وغيرهم من أهل الفنون، وفي مختلف التخصصات.

٢- التدخل المريني

قضت الدولة بني عبد الواد ردحًا من الزمن، في مقاومة الخطر المريني، الذي كان يهددها من الجهة الغربية، ومن أبرزها وأصعبها فترة الحصار الطويل الذي تعرضت له حاضرتها تلمسان (٦٩٨هـ - ٧٠٦هـ/ ١٢٩٩م-١٣٠٧م)،[١١] وكان بين المرينين، والزيانين بُغض ناشئ عن الجوار في الموطن، ثم في الملك، وعن المنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة، وليس من غريب الأمور، إن بادر حكام فاس بشن هجومهم نحو تلمسان،[١٢] كان بنو مرين هم المبادرون بتسيير الحملات العسكرية ضد أراضي الدولة الزيانية، والتي عرفها أواخر القرن السابع الهجري، وطوال القرن الثامن الهجري، والتي كانت غالبًا ما تنتهي باحتلال أراضي واسعة من بلاد المغرب الأوسط، بما ذلك عدة مدن ومحاصرة العاصمة تلمسان،[١٣] فلم ينتهوا من معاداة تلمسان، ومهاجمتها قصد الاستيلاء عليها، فاستطاع أبو يوسف يعقوب المريني، من محاصرتها سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٩)،[١٤] مدة تزيد على ثماني سنوات، ذاق أهلها أقصى المِحن والآلام، وذهب بهم الجوع إلى استباحة ما لا يؤكل،[١٥] وبعد مقتله على يد أحد مواليه،[١٦] وعادت الحياة لدولة بني زيان، حيث عرفت الاستقرار مع السلطان "أبي تاشفين الأول"،[١٧] لم تنعم بهذا الاستقرار طويلاً، حيث تم الاستيلاء عليه من قبل السلطان المريني "أبي الحسن بن لبي سعيد"[١٨] سنة (٧٣١هـ/١٣٣١م) وتربع على العرش واتبع سياسة والده، مع بني زيان خصومه، وتوجه إلى مدينة تلمسان عاصمة بني زيان، وعندما لم يستطيع اقتحام أسوارها، قام ببناء مدينة "المنصورة" بعد أن هدمها التلمسانيون عندما انتهى الحصار الطويل،[١٩] لتصبح مقرًا له ولحاشيته، ويشدد من خلالها الخناق على مدينة تلمسان. ودام الحصار أكثر من ثلاثين شهرًا، قاوم بنو زيان أثناء ذلك، مقاومة شديدة.

عاش سكان تلمسان تحت طائلة هذا الحصار سنوات عسر لم يشهد لها مثيلاً من قبل، وماذا عساهم أن يفعلوا، وهم يترقبون الموت في كل لحظة؟ وهنا يأتي التضرع إلى الله والإنابة إليه، والالتفاف حول الصالحين والأولياء أحياء وأمواتا وانتظار الفرج،[٢٠] ولم يدخلها إلا بعدما تفطن لمصدر المياه التي تزود المدينة، وبذلك اختفى رسم الدولة الزيانية وزوال نفوذهم، وحل محلهم بنو مرين في إدارة المغرب الأوسط، مدة زمنية زادت عن ثني عشر سنة، وهو الاختفاء الطويل في تاريخ بني زيان.[٢١] توفى السلطان أبو الحسن المريني سنة (٧٥٢هـ/١٣٥١م) فخلفه ولده أبو عنان فارس ٧٥٣هـ إلى٧٥٩هـ،[٢٢] وأن أول ما تقدم إليه من الأعمال أن غزا يومئذ تلمسان،[٢٣] بدأ الضعف يدب في هيكل الدولة المرينية بسبب المنافسات بين أمراءها على العرش، هذا الوضع دفع بني عبد الواد إلى إحياء دولتهم من جديد، على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني(٧٦٠-٧٩١هـ /١٣٥٩-١٣٨٩م).[٢٤]

توالت الحروب والوقائع والانهزامات على هذه الدولة، فإنه لم يفشل أبنائها الذين وطدوا عزمهم على استرجاع هذا المجد على يد أحد أفراد الأسرة الزيانية، على يد هذا البطل المغوار،[٢٥] وبهذا فشل مشروع السلطان أبي عنان في توحيد المغرب، ووراثة عرش الموحدين، كما فشل مشروع والده من قبل، لأن الدولة المرينية لم تتبنى إصلاحًا دينيًا، كما فعل المرابطون والموحدون من جهة،[٢٦] وأمام حب الوصول إلى العرش الذي لم يكن مفروشا بالورود، كانوا يستعملون في سبيل الوصول إليه كل الطرق المتاحة، المباحة منها وغير المباحة.[٢٧] دخلت تلمسان منذ هذه الفترة في دوامة من الصراع المسلح والدسائس السياسية المتنوعة، عادت على بني زيان، بالضعف وصارت تخضع للنفوذ المريني الذي صار بيدهم السلطة في المنطقة، يضعون على العرش من يريدونه، ويخلعون مَنْ لا يلبي رغباتهم.[٢٨]

٣- مشاكل داخل الأسرة الزيانية

استطاع بني مرين بعد فترة من الزمن من إيجاد وسائل أخرى تساير ظروفهم الداخلية، من أجل إبقاء نفوذهم على الدولة الزيانية، ومن اجل جعل البلاط الزياني ومن فيه في خدمتهم، وقد نجحت هذه السياسة إلى حد ما، حين جرت السعايات بينه وبين ولي عهده المولى أبي تاشفين بأمور يسمج ذكرها، فرأى إطفاء شر تلك السعايات بأن خلع نفسه لولي عهده، وتوجه إلى المشرق في البحر مظهرًا للحج،[٢٩] وعمدوا إلى تأليب "أبي تاشفين" (٧٩١هـ-٧٩٥هـ /١٣٨٩م-١٣٩٢م) على أبيه "أبي حمو موسى" الذي دخل معه في صراع، كان من نتائجه مقتل الوالد (٧٩١هـ/١٣٨٩م)،[٣٠] بمساعدة المرينيين، أثار ذلك حفيظة البيت الزياني، بعدما أصبح يخطب لسلاطين بني مرين على المنابر التلمسانية، وذلك مباشرة بعد مراسيم دفن والده، بمساعدة مرينية، فصار يخضع لنفوذهم لأنهم أصحاب انتصاره ونعمته في التربع على العرش الزياني.[٣١]

أزاح معارضوه من الأسرة، لكن البيت الزياني، لم تعجبه هذه الاستكانة والهيمنة المرينية الجديدة، فلم يستسلموا للأمر الواقع، فثار أخوه أبوزيان بن حمو،[٣٢] حاكم مدينة الجزائر، تقدم نحو مدينة تلمسان وحاصرها سنة (٧٩٢هـ/١٣٩١م)، يريد إسقاط أخيه، يريد إسقاط أخيه أبي تاشفين، وخلع الهيمنة المرينية ونفوذها من عاصمة بني زيان، ولما وصل إلى مدينة تازا سمع بوفاة أخيه بسبب مرض لم يمهله كثيرًا، ومبايعة أبو ثابت بن أبي تاشفين، وعين الوزير احمد بن المعز وصيا عليه، لأنه صغير السن، كما برز عنه أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو المشهور بابن الزابية مطالبًا بالعرش، فضلاً عن أبي بن أبي حمو الثاني، القابع بجيوشه أمام أسوار مدينة تلمسان ومن ورائه السلطة المرينية.[٣٣]

نستنتج من خلال الأحداث التاريخية أن التوتر والصراع بين المغرب الأوسط والمغربين الأدنى والأقصى كان السمة البارزة، الأمر الذي ترك حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني والذي كاد يكون مطبقًا، كما أن آثار هذا الصراع لم يقتصر على الأسر والعروش السلطوية، بل خيمت على عموم السكان الدولة بمختلف شرائحهم. وما أجج أكثر هذه الحالة، الصراعات الداخلية على السلطة بين فروع الأسرة الزيانية، بل وحتى داخل الفرع الواحد[٣٤] وأذكى هذه الصراعات تدخل العرشين الحفصي والمريني لصالح طرف على حساب الطرف الأخر لزعزعة أركان الدولة، والظفر بتأييد من يصل إلى العرش . ومن جملة هذه الصراعات نذكر خروج الأمير محمد بن زيان بدعم من النصارى،[٣٥] على شقيقه يغمراسن سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٥م)، انتهت بفشل المحاولة ومقتل الأمير[٣٦] كما خرج الأمير أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ضد الده السلطان أبي حمو موسى الأول سنة (٧١٨هـ/١٣١٦م)، وقتله إياه مع مجموعة، من معاونيه وأقاربه داخل القصر الزياني، بحجة تفضيل السلطان ابن عمّه برهوم على ابنه.[٣٧]

شهد المغرب الأوسط في الفترة الممتدة من سنة (٧٦٢هـ/١٣٦١م) و(٧٨٣هـ/١٣٨١م) صراعًا طويلاً بين أبي حمو موسى الثاني، وابن عمه أبي زيان سعيد الذي طلب الدعم والمساندة من الأطراف المعادية للسلطة[٣٨] وكان من نتائج هذا الصراع انقسام الدولة إلى شطرين، شرقي وغربي. الأول تحت سيطرة أبي زيان، والثاني تحت نفوذ أبي حمو موسى الثاني، وهذا ما جعل الدولة لقمة صائغة في أفواه المرنيين[٣٩] تكررت الظاهرة سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م)، فنشب صراع بين السلطان أبي حمو موسى الثاني وابنه الأكبر أبي تاشفين عبد الرحمن الثاني(٧٩١هـ/١٣٨٩م-٧٩٥هـ/١٣٩٣م) المطالب بالعرش، فانتهى الصراع بمقتل السلطان الزياني وابنه الأصغر ابن عمير سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م).[٤٠] ويظهر من خلال هذه الأحداث خاصّةً الأخيرة منها، أنّ السّلطة المرينيّة أصبحت تتحكّم في بلاد المغرب الأوسط إمّا بشكل مباشر عن طريق إخضاع تلمسان لسلطتها، أو بشكل غير مباشر عن طريق المساهمة في تنصيب سلاطين موالين لها، اصطنعتهم لهذا الغرض وهم من أسرة بني عبد الواد،[٤١] أي بمفهوم آخر تحقيق الهيمنة المرينيّة على المغرب الأوسط بسواعد زيّانيّة، بعدما عجز المرينيّون تحقيقها عسكريًا.[٤٢]

وهكذا شاعت الصّراعات داخل الأسرة الحاكمة الواحدة - وهذين النموذجين على سبيل المثال لا الحصر- خاصّةً خلال القرن (٩هـ/١٥م)، وممّا ساهم في إشاعتها وإذكائها التدخّل الحفصي والمريني في ترتيب شؤون البيت الزّياني لما يوافق مصالحهم، وذلك لصالح طرف على حساب طرف آخر لزعزعة أركان الدّولة الزيانية،[٤٣] وقد أنجر عن ذلك الوضع داخل الأسرة الحاكمة إلى انقسامها إلى طامع للملك ومعارض له، وأشتعل القادة لا بسياسة

الدّولة، بل انهمكوا في الدّسائس ونصب الفخاخ وربط المؤامرات، وكثرة الصّراعات الدّاخليّة والفتن والفوضى، وانعدام الاستقرار السّياسي.[٤٤] لعبت الوشاية وحب التسلط وشهوة الزعامة دورًا رئيسًا في إشعال نار الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة،[٤٥] فبالرغم من هذه الصراعات الداخلية للبيت الحاكم في تلمسان وثورات القبائل العربية،[٤٦] والزيانية ضد السلطة المركزية في تلمسان والهجومات المتكررة من قبل الجارتين الشرقية والغربية، وهيمنتها على الدولة الزيانية فترات عديدة من الزمن.

إن دولة بني زيان وعاصمتها تلمسان كانت تحتل مركزًا سياسيًا وتجاريًا وعلميًا متميزًا بين حواضر المنطقة.[٤٧] وإذا أمعنا النظر في الحروب السياسية والوقائع المتسلسلة والانهزامات المتوالية لدولة بني عبد الواد الزيانيين، وجدنا أنه لم ينل أهلها فتور ولم يتخلل صفوف أبناءها فشل في توطد عزمهم على تأسيس دولتهم بلم شمل شتات قبائل المغرب الأوسط وتكوين قوة سياسية تمكنهم من استرجاع المجد الزياني.[٤٨] تداولت على تلمسان أيدي مختلفة في عصر التفكك، فكانت تارة حفصية، وتارة زيانية، وتارة مرينية، فسادها التشتت السياسي، وفشت فيها الحالات المشحونة بالاضطرابات، كالخوف وعدم الأمن وإسالة الدماء، والتبست الأمور على سكانها، وكل يمر يوم يزداد الحال سوء واضطرابًا، وكل يوم يسمع لسكان أن واليًا هزم ووليًا نصب، حتى كانت قائمة الولاة شريطًا طويلاً في مدة وجيزة.[٤٩]

٤- التدخل الحفصي

لم تكن الدولة الزيانية دولة شرعية في أعين بني حفص، الخلف الشرعي لخلفاء مراكش، فكانوا لهذا السبب يعتبرون أنفسهم ورثة الحكم الذي كان يباشره أسلافهم على مدينة تلمسان، وليس من الغريب إذن إن تعددت الحروب بين المغرب الشرقي والمغرب الأوسط،[٥٠] فابتداءً من سنة (٦٣٩هـ /١٢٤١م)، سعى بنو حفص إلى تأكيد حقوقهم المشروعة، فحاصروا العاصمة الزيانية وأذووا أهلها متخطين حدود العنف القصوى في معاملتهم،[٥١] تلخص الصراع الحفصي الزياني في رغبة السلطة الحفصية في السيطرة على باقي بلاد المغرب الإسلامي باسم الشرعية الموحدية، وهذا ما جعل المغرب الأوسط أولى اهتماماتها .فكانت الحملة التي شنها السلطان الحفصي أبو زكريا على تلمسان في أواخر سنة (٦٣٩ هـ/١٢٤١م)، وأوائل (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) إشارة انطلاق هذا الصراع الذي انتهى بصلح بعد أن حاصر المدينة وعث فيها فسادًا وتخريبًا، فارضًا على يغمراسن الدعوة باسم الحفصين.[٥٢]

تحرك السلطان الحفصي أبو فاس عبد العزيز سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م) بحملة عسكرية صوب تلمسان متذرعًا بأن يخلصها من ظلم حاكمها، وحجته في ذلك سيرة السلطان الزياني، عدوانية غير محمودة، وحاصرها فهرب منها السلطان الزياني تاركا إياها للجيش الحفصي.[٥٣] فأقام بها العاهل التونسي مدة قصيرة، ثم عين عليها محمد بن تاشفين الثاني، المعروف بابن الحمراء،[٥٤] بدأ عهده تحت رعاية بني حفص، لا يشق لهم طاعة ولا يرد لهم طلبا واستطاع بهذه السيرة، وان يتجنب ويلات الحرب، كما تمكن بحسن سلوكه وسداد رأيه أن يجلب إليه محبة الرعية، ويجمع تأييدها حوله ويوحد صفوفها تحت سلطانه، وسرعان ما أحس بالاستقرار والقوة، أعلن عن خلع رداء الهيمنة الحفصية بقطع الخطبة للسلطان الحفصي، واستعد لمجابهته، بتعبئة القبائل العربية والزيانية وتحصين عاصمته، لأنه يعلم بأن أبا فارس لن يسكت على ذلك، وخاصة بعد أن أصبح اسمه يذكر على منابر تلمسان وفاس وغرناطة.[٥٥] وألغى ذكر اسم سلطان بني حفص على منابر مساجد المغرب الأوسط في خطبة الجمعة.[٥٦]

٥- الأوضاع الفكرية

وفما يخص الناحية الفكرية والعلمية في مدينة تلمسان، فقد شهدت حركة دؤوبة ونموًا مطردًا، لأن الحياة السياسية القلقة، التي عاشتها حاضرة بني زيان، في بعض الفترات من تاريخها، لم تؤثر بشكل مباشر على الحياة العقلية السائدة في المدينة، أو تعرقل نموها، فقد تميز الزيانيون بعنايتهم بالثقافة والعلم ورعايتهم للآداب والفنون وتقديرهم لأصحابها، وتشجيعهم على الدرس والتأليف، واحتضانهم لصفوة العلماء والأدباء والفقهاء والوافدين من حواضر المغرب الإسلامي،[٥٧] لم يكتفي طلابها بالمعارف العلمية المحلية بل جابو أقطار الدول الإسلامية في المشرق والأندلس، وتتلمذوا على أشهر علماء ذلك العصر، مما زاد تلمسان إشعاعًا علميًا احتكاك الحضارة الأندلسية بالحضارة الزيانية فانتشرت الحركة الثقافية من تأليف في شتى العلوم وازدهرت حلقات العلم والجدل والمناظرات، وأنجبت تلمسان العديد من العلماء في العلوم الدينية واللسانية والاجتماعية والطبيعية بفضل رعاية ملوكها للعلماء والعلم، وتوفير لهم مناخ المناسب للبحث والإبداع،[٥٨] يرجع الفضل في تمهيد الحركة الفكرية إلى جهود المرابطين والموحدين في مجالات الثقافة والعلم والأدب، الذين فتحوا أفاق فكرية واسعة، أتاحت للحياة الثقافية في عهد بني عبد الواد الزيانيين، وأثناء السيادة المرينية ونفوذها مزيدًا من الازدهار والنضج، فقد أولى أمراء وسلاطين هذا العصر اهتمامًا كبيرًا وعناية فائقة بالجانب الثقافي والعلمي، بتشجيع العلم والنهوض به، واحتلت العلوم الدينية محل الصدارة.[٥٩]

كثرت الفتن والاضطرابات في المغرب الأوسط ورغم ذلك بقيت سوق الثقافة الإسلامية نافعة، إن كان يظهر فيها شيء من الفتور، ويرجع ذلك أن بني زيان ولاسيما، أبي حمو موسى الثاني، نهضوا بها نهضة واسعة ودفعوا دفعة قوية، فأمكنها ان تثبت هذا

الثبات أمام الاضطرابات المتتالية، ضف إلى ذلك اتصال التلمسانين بالأندلسيين المهاجرين.[٦٠] ودعم ذلك إحداث الوسائل المعززة للجانب الفكري والثقافي المتمثل في إنشاء المؤسسات الفكرية من مدرس ومعاهد، وإسناد التدريس لأشهر رجال العلم، وتعمير المكتبات، وتكريس المجالس العلمية، وعقد الندوات والمناظرات فيها، وتدعيم الرحلات العلمية، فضلاً عن الوظيفة التي قامت بها المساجد في أداء رسالتها وكذا الزوايا والربطات الأمر الذي كان له الأثر الطيب والبارز في دفع الحركة الفكرية في المجتمع.[٦١]

كان ملوك بني زيان رغم حروبهم الداخلية، ورغم الاضطرابات التي تسود البلاد أحيانًا، يحبون العلم ويقربون العلماء ويكرمون رفادة الأدباء، وكثير منهم كان ينظم الشعر الجيد ويضرب في الآداب بسهم صائب، ومنهم من كان ينفق فيسرف في الإكرام والعطاء والهبات لمَنْ يستحق ومَنْ لا يستحق حتى اختلت الأمور المالية بسبب سخائه [٦٢] سعيد بن أبي حمو الثاني.[٦٣]، قد أكتسب المجتمع التلمساني، ثقافة واسعة ورقيًا حضاريًا أخرجه من طور البداوة إلى طور الحضارة، فأعطى بمختلف عناصره أهمية كبيرة للحياة الاجتماعية ومظاهرها، وللحركة الفكرية والثقافية، ونشر المعرفة وتعميقها بواسطة التعليم.[٦٤]

ازدهرت العلوم الإسلامية وكثر الإقبال عليها، ولاسيما كانت تمكن الطلبة من الحصول على وظائف هامة في القضاء وفي الدواوين الإدارية، وغير ذلك من المناصب التي كان الناس يتهافتون عليها، إلى جانب العلوم الإسلامية انتشرت علوم الفلك والرياضيات والطب والكيمياء وغيرها انتشارًا كبيرًا، وحظيت الدراسات اللغوية، وما يتفرع عنها من العلوم والآداب، بإقبال طلبة العلم، وازداد الاهتمام باللغة وبالبلاغة من طرف العلماء.[٦٥] إن تلمسان كانت دائمًا بلد علم وعلماء ومركز سنة وجماعة، وكان بنو زيان من رعاة العلوم، فاستقدموا أهل العلم والأدب، وخاصةً الشعراء، وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء على مثال ما كان يفعله جيرانهم ومنافسوهم بنو مرين وبنو وطاس، وكذلك كثر في تلمسان أهل التصوف، والصُلحاء والعباد.[٦٦] ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة إلى أن ازدهار الحياة الفكرية والعلمية في تلمسان ارتبط بالمناخ السياسي بصورة يصعب فصلها، بل أنها تدين في كثير من تقدمها وتطورها للعامل السياسي الذي يتعهدها.

خَاتِمَةٌ

إن الاضطراب السياسية الّتي مرّت بها تلمسان عاصمة المغرب الأوسط عبر القرون الثلاثة والتي جاءت كنتيجة حتمية لهجمات الدولة الحفصية من الشرق تارة، وهجمات المرنيين من الغرب تارة أخرى، إضافة إلى الفتن التي لا تكاد تنطفئ حتى تشتعل مرة أخرى، كما كانت تزاحمها في الوقت نفسه عدة قبائل محلية، غير أن بني زيان كان نجاحهم في سياستهم الداخلية أكثر، إذ قربوا إليهم بعض رؤساء القبائل واتخذوهم حلفاء ضد القبائل الثائرة على سلطتهم، وبهذه السياسة نجحوا في توطيد دعائم دولتهم، فما إن أعلن الحفصيون استقلالهم في تونس حتى أعلن بنو زيان استقلالهم في تلمسان. ومما سبق نستنتج أن السياسة العامة لدول المغرب الإسلامي (الحفصية، المرينية، الزيانية) هي سياسة المحافظة على التوازن وعدم السماح لأي منها بالانفراد بالسيادة والسيطرة، وعلى ان موقع الدولة الزيانية في الوسط كلفها الكثير من المتاعب وألحق بها عدة خسائر وحال بينها وبين الاهتمام بمشاريعها الداخلية ومواجهة القرصنة الأوروبية واعتداءاتها المتكررة على شواطئ البلاد، كما حال دون قيامها بتقديم مساعدات عسكرية لمسلمي الأندلس الذين كانوا يعانون في تلك الفترة من الظلم والاضطهاد الإسباني، كان له أثر على الحياة الاجتماعية والثقافية في أغلب فتراتها، إلا أنه رغم ذلك نجد عناية حكام بني عبد الواد بالثقافة والعلوم، والآداب، والفنون، كانت كبيرة، إذ قربوا إليهم العلماء، وشجعوهم على التدريس، وأغدقوا عليهم الأموال، وبنوا لهم المدارس، والمساجد، والزوايا، كما عملوا على توفير الجو المريح والملائم للطلبة كل ما من شأنه أن يسير لهم سبل التحصيل والمعرفة، وبالتّالي يمكن القول أن التقهقر الفكري والعلمي لا يرتبط حتمًا بالتدهور السياسي.

الهَوامِشُ:

(١) أسّسها المهدي بن تومرت ابتداءً من سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م)، وعاصمتها مرّاكش، واستطاعت أن توحّد المغرب الإسلامي، إلا أنّ انهزامها في معركة العقاب بالأندلس سنة (٦٠٩هـ/١٢٦٩م)، وثورة بني غانية، من الأسباب الّتي عجّلت بسقوطها سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) على يد المرينيّين. يُنظر: عبد الواحد المرّاكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق صلاح الدّين الهوّاري، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص١٣٦-؛ ابن أبي الزّرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطّباعة والوراقة، الرّباط، ١٩٧٣، ص١٨٣-؛ أبوبكر علي الصّنهاجي البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص٧-؛
Rachid bourouiba Ibn Tumart, SNED,Alger,1982,P9

(٢) **العقاب**: موضع بالأندلس بين جيان وقلعة رباح وقعت فيه معركة بين الموحدين والأسبان انهزم الموحدون فيها سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، يُنظر الروض المعطار في خبر الأقطار- محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان ١٩٧٥، ص ٤١٦.

(٣) نسبة إلى الشّيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، من قبيلة هنتانة إحدى بطون المصامدة، ويعد أبي زكرياء يحيى الأوّل مؤسّس الدّولة الحفصيّة سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م)، والّتي استمرت إلى غاية دخول الأتراك سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م. يُنظر: محمد العروسي المطوي، السّلطنة الحفصيّة تاريخها السّياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٢٦، ص٨٥-؛ محمد الأندلسي الوزير السراج، **الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة**، ج٢، تحقيق: محمّد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص١٤٠.

(٤) ينتمون إلى بني واسين إحدى بطون زناتة البربرية، أسقطوا مرّاكش عاصمة الموحّدين وأسّسوا دولتهم على أنقاضها في عهد يوسف يعقوب (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م). يُنظر: محمد ابن مرزوق، **المسند الصّحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص١٠٧.

(٥) عبد الحميد حاجيات، **أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع للكتاب، الجزائر ١٩٨٦، ص٢٢-٢٣.

(٦) بويع أمير المسلمين يغمراسن بن زيان، وأوضح للخلافة الحسينية الآثار، ورفع لمن ضل عن سبيل هداها أعلى منار، فابتهج الدهر بوجوده، تولى الحكم من سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) إلى سنة (٦٨١هـ/١٢٨٣م)، يُنظر **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، مقتطف من **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، لمحمد بن عبد الله التنسي، تحقيق محمود عياد، المؤسسة الوطنية للكتاب،١٩٨٥، ص ١١٥، وروض **النسرين في دولة بني مرين** لأبي إسماعيل بن الأحمر، المطبعة الملكية، الرباط، ص٤٥-٤٩.

(٧) أبي زكريا يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، ج١، المكتبة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦، ص٢٠٤-٢٠٧.

(٨) محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٥، الجزائر، ص٧٣.

(٩) جمال الدين بوقلي حسن، **الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،١٩٨٥، ص١٦.

(١٠) عبد الحميد ابن أبي زيان بن شنهو، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر**، الطباعة الشعبية للجيش (د.ت) ص١٠.

(١١) محمد بن رمضان شاوش المرجع السابق، ص٧٣، يُنظر كذلك علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣، ص ٣٨٥.

(١٢) جمال الدين بوقلي حسن، **الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد**، المرجع السابق، ص١٦

(١٣) عبد الله شريط ومحمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، طبع مكتبة البعث، قسنطينة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥، ص١٠٠ - ١٠٣.

(١٤) يوسف بن عبد الحق المريني، **أبو يعقوب (٦٣٨-٧٠٦هـ /١٢٤٠-١٣٠٧م)**، يُنظر إلى أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، المرجع السابق، ص٢١.

(15) G. Marcais, Tlemcen, libraire Renouard .Paris, 1950, p57

(١٦) عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ٣٠٧.

(١٧) أبو تاشفين الأول حكم ما بين (٧١٨-٧٣٧هـ/ ١٣١٨م-١٣٣٧م)، يُنظر: التنسي، المصدر السابق، ص١٣٩، ابن الأحمر، المصدر السابق، ص٥١.

(١٨) عن حركة أبي الحسن المريني: يُنظر ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ط دار الفكر ٢٠٠، ج٧ ،٣٨١، ٣٣٩، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار الب يضاء١٩٩٧، مج١، ج٣، ص١٢٣.

(١٩) عن هذه المدينة يُنظر:
Marcais (W.G), les monuments arabes de Tlemcen; librairie thorin; paris1903;pp192,201

(٢٠) بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين٧-٩هـ /١٣-١٥م**، دراسة في التاريخ السوسيو- ثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع- الجزائر، ٢٠٠٣.

(٢١) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج١، ص٤٧.

(٢٢) أبي عنان ولقبه المتوكل على الله، بويع في تلمسان في حياة أبيه، في شهر ربيع الأول عام ٧٤٩هـ ومات مغتالاً، ودفن بجامع المدينة البيضاء، وكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر، كان فارسًا شهمًا شجاعًا بطلاً مجربًا، يقوم في الحرب مقام جنده، وكان فقيهًا يناظر فيه العلماء، انظر: **موسوعة أعلام المغرب**، لمحمد حجي، ص٧٥٩، **أبو حمو موسى الزياني: حياته وأثاره**، تأليف عبد الحميد حاجيات، ص٣٤. وابن مريم المديوني، المصدر نفسه، ص٢١٥.

(٢٣) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٥، ج٢، ص١١٠-١١١.

(٢٤) عن شخصية السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، يُنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج٧، ص٤٨٢، عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، خصه بدراسة عن حياته وأثاره، عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج٢، ص١٨٠-١٨١.

(٢٥) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص١٧٩.

(٢٦) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص٥٣.

(٢٧) نفسه، ج٢، ص٦٧.

(٢٨) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٧، ص٣٠٧.

(٢٩) محمد بن عبد الله التنسي، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان**، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، والمكتبة الوطنية الجزائرية، ١٩٨٥، ص١٨٠.

(٣٠) نفسه، ص١٨١.

(٣١) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص٦٦.

(٣٢) يُنظر عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص٦٦، يُنظر: محمد بن عمرو الطمار، **تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٢٠٩-٣٠٠، ومبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج٢، ص ٤٥٤،٤٧٠، وإسماعيل بن الأحمر، المصدر السابق، ص٥٩-٦٠.

(٣٣) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المصدر السابق، ج٧، ط بولاق، ص٣٠٧.

(٣٤) بوزيان الدراجي، **نظم الحكم في دولة بن عبد الواد الزيانية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة١٩٩٣. ص٣٢-٣٦.

(٣٥) استعان بهم يغمراسن في جنده وكان دائمًا متباهيًا بقدراتهم العسكرية، يُنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، **العبر** (المصدر السابق)، ج٧، ص ١١٣.

(٣٦) نفسه، ص١١٣

(٣٧) اصطفى السلطان أبو حمو ابن عمه برهوم وتبناه وقربه لما تميز به هذا الأخير من صرامة ودهاء، نفسه، ص١٣٩، يُنظر كذلك، يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص٢١٤-٢١٥، والتنسي، المصدر السابق، ص١٣٨.

(٣٨) يحي ابن خلدون، **بغية الرواد**، نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفرد بل، ج٢، مطبعة فونتانا، الجزائر، ب.ط، سنة١٩١١، ص١٢٢، عبد الرحمن ابن خلدون، **العبر** (المصدر السابق)، ج٧، ص١٦٩.

(٣٩) عبد الحميد حاجيات، "**السلطان أبو حمو موسى الثاني: سياسته وأدبه**"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ب.ط، يوليو١٩٦٨، ص٢٥.

(٤٠) عبد الرحمن ابن خلدون، **العبر**...، ص١٩٤-١٩٥، أيضًا، عبد الحميد حاجيات أبو حمو... المرجع السابق، ص١٤٠. مبارك الميلي، المرجع السابق، ج٢، ص٤٦٠.

(٤١) عبيد بوداود، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين (٧-٩هـ/١٣-١٥م): دراسة في تاريخ السوسيو-ثقافي**، دار الغرب، الجزائر، ٢٠٠٣، ص١٦١.

(٤٢) عبد العزيز فيلالي، المرجع السّابق، ج١، ص٥٩.

(٤٣) عبيد بوداود، **التصوف**.... المرجع السابق، ص١٦٣.

(٤٤) مولاي بلحميسي، "**نهاية دولة بني زيّان**"، مجلّة الأصالة، الجزائر، العدد (٢٦)، السنة (٤)، ١٩٧٥، ص٣١.

(٤٥) أبي العباس احمد بن حسن الشهير بابن الخطيب أو ابن قنفذ، **شرف الطالب في انس المطالب**، ص١٦.

(٤٦) عبد العزيز فيلالي، المرجع السّابق، ج١، ص١٧، ويُنظر خالد بلعربي، **الدولة الزيانية في عهد السلطان يغمراسن دراسة تاريخية وحضارية (٦٣٣-٦٨١ هـ/ ١٢٣٥-١٢٨٢م)**، مطبعة الريان، تلمسان، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥.ص٩٥، ويُنظر عبيد بوداود، **التّصوّف**...المرجع السّابق، ص١٧١.

(٤٧) شوقي الجمل، **المغرب الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر**، ص٢٣.

(٤٨) الشريف أبي عبد الله محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، **مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول**، ص٣٠-٣١.

(٤٩) جمال الدين بوقلي حسن، **الإمام ابن يوسف السنوسي، وعلم التوحيد**، ص٢١.

(٥٠) المرجع السابق، ص١٦.

(٥١) يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق ألفرد بل، بيير فونتانا، الجزائر،١٩٠٣، المجلد الأول، القسم الثاني، ص١١٣.

(٥٢) الزركشي، (أبوعبد الله محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ)، (٨٨٣هـ/١٤٧٨م): "**تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**"، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، سنة ١٩٦٦، ص٢٩.

(٥٣) محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص٢٤١.

(٥٤) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ج٢، ص١٩٥.

(٥٥) المطوي محمد العمروسي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦، ص٤٣٢.

(٥٦) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص ٧٠.

(٥٧) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج٢، ص٤٩٧.

(٥٨) عمورة عمار، **موجز في تاريخ الجزائر**، ص٨٦.

(٥٩) الشريف عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، **مفتاح الوصول إلى بناء الفروع والأصول**، ص٣١.

(٦٠) **تلمسان عبر العصور**، محمد بن عمرو الطمار، ص٢١١.

(٦١) الشريف عبد الله بن محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، المصدر نفسه، ص٣١.

(٦٢) أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص٣١.

(٦٣) سعيد بن أبي حمو الثاني حكم في الفترة الممتدة (٨١٤-١٤هـ/ ١٤١٢-١٤١٢م)، راجع: **كتاب الجزائر**. توفيق المدني، ص٥٠٠-٥٠١.

(٦٤) عبد العزيز الفيلالي، المرجع نفسه، ج١، ص٥٥.

(٦٥) العلامة الإمام أبي العباس أحمد بن حسن الشهير بابن قنفد، تحقيق عبد العزيز صغير درخان، **مشرف الطالب في اسنى المطالب**، ص١٦.

(٦٦) ابن الاحمر، **تاريخ الدولة الزيانية في تلمسان**، تحقيق هاني سلامة، ص٤٨.